

البستان لسدي الشيرازي

بمعلم
الأستاذ محمد خليفة التوشى

أولاً — المؤلف : عالمه أو عوالمه

« عالم مضطرب كشعر الزنج » هكذا وصف لنا صديقنا سعدى فى كهولته عالمه الذى اكتنفه حيث عاش من بلاد الإسلام وجيرانها فى القرن الهجرى السابع ، وقد ولد سعدى حول مطلع ، وعمر حتى أدرك عقده الأخير .

ولقد صدق سعدى فيما أراد ، وكان أصدق وأبرع فيما لم يرد ، فوصفه يمثل ذلك العالم حوله ، بل يمثله ويمثل شعوره به معاً ، ولكنه أصدق وأبرع تمثيلاً لسعدى فى شخصيته وحياته جميعاً ، فقد كانت المحنة التى تتفرع بها سريرته خلال عمره الطويل — أشد من الفتن الجياشة حوله ، وأعصى على القرار والانتظام ، حتى بعد كل ما بذل هذا المجاهد الجبار من حول وحيلة كى تسكن أشجانه فيسكن . وقد شقى بحن العظمة فى نفسه أشد مما شقى بفتن الدنيا المحيطة به ، وعاش هذا الإنسان العظيم المسكين — مع صلابته — شخصية قلقة موزعة الأهواء ، فى عالم يتنزى بالقلق ويتهافت للضياع ، كأنما غفلت عنه العناية فتولت أمره أبالسة الفوضى ،

وأغرت بين ناسه العداوة والبغضاء ، فاستعر جنونهم بالفتنك وتهافتهم على الفساد أشد من ضواري الوحوش . ونظر حيث نتابع سعدى فيما اكتنفه من أحوال بيئته وعصره . أو فيما ركبت عليه شخصيته ، أو جرت عليه حياته — فلا يبدو لنا إلا « عالم مضطرب كشعر الزنج » .

لم يقاس العالم الإسلامى طوال تاريخه ما قاسى فى القرن الهجرى السابع من شدائد وأهوال شهداها سعدى ، ففى خلال هذا القرن امتدت الفتن العنصرية والدينية والمذهبية ، والفتن التى أثارها المغامرون من طلاب الملك والسيادة والثراء فى العالم الإسلامى ، وكل هذه الفتن كانت قد نجمت قبل ذلك بقرون ، فزقت أو اصر المسلمين وأوهنت بأسهم ، وخلال هذا القرن امتدت الحملات الصليبية وكانت قد نجمت قبل ذلك بأكثر من قرن ، ولكن العالم الإسلامى يومئذ فوجئ فوق تلك الفتن الجائحة بما هو أدهى وأبعد أثراً : فاجأتها فتن الغزو التتارى الذى هز أعماق كل مملكة فى آسيا وشرق أوروبا ، واكتسح أقوى الممالك الإسلامية الآسيوية ، حتى بدا الإسلام فى آخر القرن الهجرى السابع كأنه يحتضر ، زاهقاً بين ضغط الصليبيين غرباً والتتار شرقاً ، وهذا مع عذابه بفتن

أهله . فقد تلت ذلك البلاء جرائره من قحط ووباء ،
وقتل عشرات الملايين ، وتخریب مئات القرى والمدن ،
وكانت جناية هذه الفتن على العقول والأخلاق والأذواق
أشنع من جنايتها على الدماء والأرزاق .

هذا هو العالم الذى عاش فيه سعدى واكتوى
بأهواله « مضطرب كشعر الزنج » ولكن أهوال نفسه
كانت أكوى وأمض .

ولد مشرف بن مصلح (وهذا اسم سعدى) فى
مدينة شیراز عاصمة إمارة فارس ، ومن هنا نسبته
الشيرازى كثيراً ، والفارسى نادراً ، وكانت أسرة أبيه
كأسرة أمه من شيوخ الدين والعلم ، فنشأ مثلهم ، وتعلم
دروسه الأولى على يد أبيه وأمثاله من شيوخ شیراز ،
وذاق مرارة اليم فى صباه فلم تفارقه قط ، وقد أشار
إليها فى بيت شعر من ديوانه « البستان » الذى ألفه كهلا
فقال :

« أرانى ببأس اليتامى خيراً

أبى مات عنى طفلاً صغيراً »

وكان أبوه قبل ذلك فى خدمة الأتابك سعد بن
زنكى السلغرى أمير فارس ، فأبت مروعة الأمير لإلا
كفالة اليتيم ، فأرسله على نفقته إلى بغداد ليم دروسه فى
مدرستها « النظامية » الكبرى على شيوخها الأجلاء ، فأثر
صاحبنا منهم أهل التصوف ، وقد ذكر منهم شيخين :
أحدهما شهاب الدين السهروردى (٥٣٩ - ٦٣٢)
وثانيهما أبو المحاسن بن العلامة أبى الفرج بن الجوزى
(٥٨٠ - ٦٥٦) وبعد اتمام دراسته عاد إلى شیراز فترة ،
ثم تركها بعد قليل ليستأنف مرحلة السياحة بعد مرحلة
التعلم .

ترك فارس كلها سنة ٦٢٣ لاضطراب أحواله
وأحواله عند وفاة أميرها سعد يومئذ - ويظهر أن
أم سعدى ماتت قبل رحيله - ومضى يتقلب فى مطارح
البلاد نحو ثلاثين سنة ، زار فيها العراق والحجاز والشام

وآسيا الصغرى وشمالي أفريقية غرباً ، كما زار بلاداً
أخرى منها الهند وإيران وخراسان وتركستان وما وراء
نهر جيحون شرقاً ، وخلال رحلاته اتخذ زى الدرويش
السائح ، وعرف واعظاً وشاعراً ، ومع سيروء شعره
فى العالم الإسلامى - ولا سيما المشرق - ذاع صيته بأشهر
أعلامه « سعدى » وهو « تخلصه » أو « علمه القلمى
"pen name" » وقد اتخذ هذا « التخلص » اعترافاً
منه بفضل كافله الأمير سعد بن زنكى عليه وعلى
أسرته قبله ، وقد حمل السيف للجهاد مرتين إحداهما
فى الهند ، وأخرى قبلها فى الشام سنة ٦٢٧ لقتال
الصلبيين ، فوقع أسيراً فى أيدي الفرنجة حتى افنداه
صديق شامى بعشرة دنانير ، وزوجه ابنته وأمهرها
عنه بمائة دينار ، كما تزوج أخرى فى اليمن ، ولا يعرف
له من الذرية غير وليد مات طفلاً فرثاه ، وعاد إلى
شیراز سنة ٦٥٤ بعد أن تقدمت به سنه ، وبعودته
تمت المرحلة الثانية من مراحل حياته وهى مرحلة
السياحة .

واستأنف المرحلة الثالثة والأخيرة بالاستقرار فى
موطنه لم يفارقه غير مرات عاود فيها الحج إلى مكة ،
وقضى فى شیراز بقية عمره ، يروض أشجان نفسه
بالمجاهدة والعبادة والتأليف ووعظ الأمراء والرعية ،
وبالشفاعة للعامة عند الحكام والأعيان الذين كانوا
يوقرونه ، فيقبلون شفاعته ، وكذلك كانوا يعطونه
ما يرفضه حيناً أو يقبله حيناً ليوزعه على الفقراء ،
وقد أهدى كثيراً من تواليفه الأخيرة إلى حكام فارس
من الأتابكة السلغريين الذين كانوا حماة ، كما أهدى
بعضها إلى غيرهم بين مسلمين ووثنيين ممن كان التتار
يرسلونهم لحكم فارس بعد خضوعها لهم وسقوط
السلغريين ، ولم تسكن أشجان القلب فى نفس هذا
الإنسان العظيم المسكين إلا بسكون آخر أنفاسه هناك
سنة ٦٩١ ، فدفن فى زاوية ذات بستان ، كان قد
عمرها فى أحد أطراف شیراز . وتلك مراحل حياته

الثلاث كما قسمها الدكتور إتيه وتبعه المؤرخ الكبير براون ،
وقد جاريناه في تقسيمها وان خالفناه في حدودها ،
ونتأملها فإذا هي « عالم مضطرب كشعر الزنج » .

والمتتبع لحياة سعدى ومؤلفاته بعطف وبصيرة يجد
أن نفسه كانت جياشة بألوان شتى من الأهواء الخائرة
ملكته ولم يملكها ، وكان الخير في ذلك ، وهي متمزجة
متحدة في أعماقه ، ولكنها موزعة متميزة في نزعاته
التي تنفس عنها ، وأهمها أربعة أهواء ، نقنع بالإشارة
إليها للكشف عن جوانب شخصيته وملامح عبقريته
وجملة حياته الباطنية ، ونمسك لضيق المقام عن تفسيرها
والتدليل عليها من أعماله وأقواله .

وأول أهوائه هوى « التنقل » ونقصه به أوسع من
السياحة بين البلاد ، فهو يشملها كما يشمل التنقل بين
الخلطاء وأحوال الحياة ، لاستئناس علاقات جديدة
بهم وبها ، ولو عزت السياحة بين الأمكنة ، واللون الثاني
هو الهوى الفنى وهو ظاهر فى تواليفه وكثير من أعماله ،
فهو يعانى ما يعانى كل فنان من حيرة نفسه وعالمه ، حين
تجيش مواجد سريره ، فينطلق خياله ليتصيد المثل والرموز
من داخله أو خارجه ، ويفرغ معانيه وعواطفه فى قولها ،
ويجسدها صوراً ، وأكبر حظ سعدى هنا خيال يذب
فى الأشواط القصار فيحسن التدبيق ، ولا ينطلق فى
الأشواط الكبار لإبداع الصور الكبيرة المركبة فى
التكوين ، وقد أوتى مزيتين كبيرتين : إدراك الجمال
البسيط ولقانة المعانى الرفيعة ، كما جمعت معظم آثاره
فضيلتين تشيعان فى حكم القدماء : البساطة والعمق .
وله فوقهما حلاوة الأداء ورشاقته أو رشقه .

واللون الثالث هو الهوى الصوفى وذلك واضح فى
مؤلفاته وضوحه فى أخبار حياته منذ طفولته حتى وفاته ،
ولكن صوفيته عملية لا نظرية فهو طالب فضيلة أكثر
مما هو طالب معرفة .

والهوى الرابع عنده هوى الإصلاح فى سليقته
الخير ، ويظهر أن هذا الهوى من ماثورات الأسرة أو
موروثاتها كما يدل اسم أبيه « مصلح » وهذا الهوى جلى
الملامح فى كل مساعيه وأعماله وأقواله ، فإعماله بعد
رشدته لإنقاذ روحه وحده ، بل عمل على إنقاذ أرواح
الآخرين ، ولم يجد غبطة للمرء أكبر من سعاده باسعاد
غيره ، وهو صاحب الكلمة التى اتخذتها عصبة الأمم
شعارها بعد الحرب العالمية الأولى « بنو آدم جسد واحد ،
من عنصر واحد ، فإذا تألم عضو أرق له سائر الأعضاء ،
ومن لم يؤلمه ألم غيره فليس جديراً أن ينسب إلى آدم » .
وقد تمكنت هذه الأهواء من فطرته فلم يعرف
معها الراحة حتى حال الموت بينه وبين هذه الأهواء ،
ونظر نفسه جياشة بأهوائها العارمة فإذا « عالم مضطرب
كشعر الزنج » .

وأظهر أخلاقه السباحة ، كما أن أظهر مواهب
فكره سعة النظر والاستقلال بالرأى ، فخلص من
منازعات عالمه بالتعالى عليها جميعاً ، حتى اهتدى إلى
لب الحقيقة التى تتصارع حول قشورها العصبية ،
واحتضن كل المتصارعين بعطف الأخوة ومواساتها ،
ونادى بالأخوة الإنسانية وأخوة الأحياء ، وأعلن أن
الحياة مع الفضيلة ، وأن لها الاحسان ، وأن العبادة كلها
لله فى حسن النية والعمل لكل الأحياء « حتى النملة إذا
علقت بمتاع امرئ إلى غير مكانها كان من المروءة أن
يردها إلى موطنها مع سربها » ، بل نادى بالأخوة الكونية
فشمل بسماحته كل شئ حتى الشيطان : تصوره جميلاً
مفتري عليه من أعدائه ، ورأى له نصيباً فى مائدة كرم
الله يطلبه بحقه فى ولاء الله ، والكون عنده واحد ، والعالم
مظهر كمال الله وجماله وملكوته ، فالأشياء بمعانيها
لا بصورها ، وكل الأشياء من الله وإليه ، والعالم كله
وطن الإنسان .

ومنت بفضل أبيها عليه، وعيرته رقة حاله أجابها « كيف أكون هيناً وقد اشتراني أبوك بعشرة دنانير ، واشتريتني أنت بمائة » ، فألبسها « قميص الكتاف » لو كان المنطق يكتب امرأة أو يعقل لسانها بقيد أو حد . هذا هو صديقنا سعدى الذى يعدونه أشهر شعراء الفرس وأحد أنبيائهم الثلاثة : سعدى فى الغزل ، والفردوسى فى القصص ، والأنورى فى القصيد كما يقول « دولتشاه » .

ثانياً — البستان

من أحاط خبراً بالبستان لم يفته من سعدى إلا القليل الذى يشبه الإضافات أو الفضول ، إلا أن يكون تكراراً لما فى البستان ، وهذا ما ينبغى أن يراعى فى التميز بين آثار الفنانين وتفضيل بعضها على بعض ، ولهذا اخترنا البستان بين سائر مؤلفات سعدى (أو كلياتها) وهى ثلاث وعشرون ، لأنه أعظمها وأكبرها تمثيلاً لنفسه وحياته وبجملة ملكاته وأخلاقه ، وصلته بربه وعالمه ، وعقيدته الإنسانية الكونية التى انتهى إليها فى الكهولة بعد جهاده سائحاً مرتاضاً مفكراً ، وبقي عليها مبشراً بها حتى وفاته . وسعدى — كما يبدو — ألصق بشعورنا من كثيرين بين أحدث عطاء الفكر والإصلاح فى عصرنا الحاضر الذى نتجه فيه إلى غاية العالمية أو الكونية وغاية الفردية معاً عن طريق واحد هو طريق الإنسانية ، وسعدى من رواد هذا الطريق فى الرعيل الأول حتى اليوم وما يليه ، وبإنسانيته سيبقى جديداً على توالى العصور ما بقى إنسان فى الوجود ، وهو للصوقه بأنفسنا وحبه إيانا أهل منا للصدقة والحب ، كما أنه لعظمته الخيرة أهل منا للاعجاب والتوقير .

كان البستان (حديقة الفواكه) أول عمل كبير لسعدى بعد فراغه من رحلاته بين مطارح العالم نحو

ولم يكن إسلام سعدى عقبة فى طريقه إلى هذه العقيدة الإنسانية الحيوية الكونية ، بل كان عوناً له ، لأن الإسلام دين رب العالمين إلى الناس كافة ، وهم فيه إخوة من أصل واحد ، لا يتفاضلون إلا بالتقوى ، وكلهم راع ومسئول عن رعيته ، والله رب كل شىء ، وهو وحده الخالق الرازق الديان ، ورحمته وسعت كل شىء . ويكاد يكون من تحصيل الحاصل أن نشير إلى أن سعدى لم يقف عند حدود مذهبه الذى نشأ عليه فى وطنه الشيعى ، ومن دلائل ذلك فى البستان أنه تولى جميع الخلفاء الراشدين ، ثم تولى فى الله كل خلقه .

ومعظم آرائه يذكرنا بآراء الفيلسوف اسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧ م) . فى الله والعالم والأخلاق والسياسة والمعرفة ، لكن سعدى يغنى ويصور فى شعره ونثره بالإجمال الفنى ماتفلسف اسبينوزا بتحليله وإثباته بالتفصيل المنطقي . كما تذكرنا آراؤه فى الأخلاق والسياسة بالفلسفة الرواقية عندما بلغت طور تصحيحها بعد طور تأسيسها ، لولا أن الرواقية مادية وسعدى روحى ، ونرجح لأسبابنا أنه لم يطلع على مصادرها .

وقلما تخلو نفس كبيرة من جانب فكاهة ، وكانت نفس سعدى — لأسباب نمسك عن بيانها — وافرة الحظ من ملكة الفكاهة ، إذ بلغت سماحته حد الظرف ككثير ممن قرأناهم وعاشرناهم من النازعين إلى التصوف ، وكانت النكتة عنده عصا المربي الحكيم يتوكأ عليها ويشير بها أمام الصغار إلى تعاليمه ، وقد يؤدب بها أو يداعب فى فهم وعطف ، والمأثور من نكته يدل على فطنته وأنفته وبره وحلاوة روحه مع عارفيه وجاهليه معاً ، وحسبنا من نكته مع عارفيه نكته مع زوجته الشامية — وقد قدمنا أن أباهما افتداه من الفرنجة بعشرة دنانير ثم زوجه منها ، وأمهرها عنه بمائة دينار — فلما أساءت عشرته ،

ثلاثين سنة ، وعودته إلى شیراز سنة ٦٥٤ هـ ، وقد أتمه سنة ٦٥٥ هـ ، فأهداه — تقديراً وتشجيعاً وارشاداً — إلى الأتابك أبي بكر بن سعد أمير فارس من الأسرة السلغرية صاحبة الفضل على الشاعر وعلى أسرته قبله ، ولم تنقصه عزة الصوفية التي تعلو عزة الملوك وهو يقدمه إليه . . فجاهره في البستان بنصائح القوية ، وبصره بمسئوليته ، ونبهه إلى أن اسمه سيذكر ما ذكر البستان قرين الشمس والقمر في السماء .

ومن دواعي العجب بل السخرية أن يعتمد كاتب إلى ديوان شعري فيلخصه ، ولا سيما ديوان صوفي كالـبستان، يعتمد على الإيحاء في رموزه القصصية ، ولكن سرعان ما يزول العجب ، وتختفي شياطين السخرية ، حين نعرف أن البستان من الشعر التربوي أو الأخلاقي بخاصة ، سواء في بنيته وغايته ، والفضيلة فيه أغلب على المعرفة ، فهو يشبه أن يكون بحثاً ، وقد رتب مؤلفه كما ترتب البحوث ، فجاء مقدمة وعشرة أبواب ، يجمع كل باب منها قصصاً تناسبه ، وتدور كل القصص في أى باب على فضيلة خاصة ، هي عنوان الباب وهذا حسب المؤلف من حسن التقسيم ، وإن كانت بعض القصص في باب لا تبدو غريبة لو وضعت في باب آخر ، وقد يسرت البستان على القارئ بقدر ما اتسع لي المقام للتيسير ، ومهدت له بصورة تلم بمعالم صاحبه في إجمال مركز ، لتعين على تقريب الكتاب نفسه ، لأن الشاعر وشعره كالماء ونضحه لا يدرك أحدهما بغير الآخر .

وأبيات البستان تربو على أربعة آلاف بيت في القصص المنظومة ، قسمت منظوماتها بين المقدمة والأبواب وفق مناسبتها لها ، وأطول الأبواب أولها ، وهو « في العدل » وتربو أبياته على خمس البستان ، وأقصر

الأبواب آخرها وهو « في المناجاة » وأبيات الأبواب بين ذلك تتفاوت عدداً . كما يختلف عدد الأبيات وتقسيمها منظومات أو قصصاً ذات عنوانات — باختلاف نسخ الكتاب ، وأدناها إلى التمام نسخة « سودى البسنوى » الذي شرح البستان بالفارسية ، وهو يعد أفضل شرح له وأيسره بين الأتراك كما ذكر حاجي خليفة في فهرسه « كشف الظنون » . وقد نظم سعدى البستان بالفارسية ، ولاحتجابنا عن بلاغة الأصل كان أعظم معولنا على الترجمة الإنجليزية للأستاذ أ . هارت إدواردز ، وقد ضمنت كثيراً وأنا أوازن بين الترجمة الإنجليزية وترجمة البابين الأولين إلى العربية للدكتور الباحث محمد موسى هنداوى ، ثم كتاب « سعدى الشيرازى » بالعربية للدكتور هنداوى أيضاً ، وأنست كثيراً بتحليله البستان ، فما أنست بكتاب « قطوف من بستان السعدى » للأستاذ الموقر حامد عبد القادر و « تاريخ فارس الأدبي » A Literary History of Persia للعلامة الحبير بروان وأنست بغيرهما من المصادر في العربية والإنجليزية ، بل كنت آنس في النص الفارسي أحيانا بما فيه من الكلمات العربية ، أو الكلمات الفارسية التي تشبه الكلمات الإنجليزية في الجذور .

وأبيات البستان من الشعر « المثنوى » مثل « الأنبيات » وسائر المنظومات التعليمية في العربية ، حيث تتفق القافية بين شطري كل بيت ، ويجدد في البيت التالى لتسهيل إطالة النظم ، وكذلك الأبيات كلها من البحر المتقارب (فعولن ثمانى مرات) وهو وزن صالح للشعر القصصى Epic Poetry ، ويتكون البستان من منظومات ، والمنظومة فيه قد تطول فتربو على مائة بيت ، أو تقصر فتكون بيتين ، وبعض قصص البستان من حياة سعدى أو من مسموعه أو ابتكاره ، وشخص كل قصة في البستان مناسبة لقصتها مؤدية لمعناها ، سواء منها الأشخاص الإنسانية أو الحيوانية أو الجمادية .

ووجهتنا في هذه « الخلاصة » تلخيص جملة المعاني في كل قسم على حدة، مع الاستثناس ييسر من الصور التي تمثل للقارئ ما خامر سريرة هذا الشاعر من المواساة، مع نقل جمل وشذور موجزة كما هي، ولا سيما مقدمة كل باب، لأن هذه المقدمة أكثر تمثيلاً لمعاني الباب وأدل على اتجاه الباب كله، وقد آثرنا نقل بعض النصوص خلال « الخلاصة » لنخفف حجابنا بين سعدي وقارئه، فليسان المين — كسعدى — أقدر على بيان مواجده من لسان غيره، وطريقتنا المفضلة في فهم إنسان أن نسمع منه أكثر مما نسمع عنه، فهو بنفسه أخبر، وكلامه عنها أبصر، ولو حاد عن الصواب أو قصر، ساهياً كان أو عامداً، وحائراً أو قاصداً، ولا يفهم أثر فني قبل الاتصال بصاحبه من خلال هذا الأثر، ولا بد للقارئ أن يتقدم إليه خطوات ليلقاه في وسط الطريق، فيستشعر الأثر في نفسه كما شعر به صاحبه، ولا بد أن يتمثله مثل صاحبه، ويراه من حيث رآه وكما رآه، ليدرك ما قال وما لم يقل على السواء. ويكاد يكون من تحصيل الحاصل أن نشير إلى أن خلاصتنا لا تغني في تمثيل الديوان إلا ما تغني قبضة من الثمر والزهر عن ربيع البستان، وإن أمعن مجتنيها في الاختيار أشد امعان، وبلغ من الخبرة بما لديه غاية العرفان.

ثالثاً — الخلاصة

مقدمة البستان

معانيها

تبدأ باسم الله وحمده بما هو أهله، ثم مدح النبي والخلفاء الراشدين ومناشدة الله حسن الختام بحق أبناء فاطمة. ثم تبين سبب نظم الكتاب وأقسامه واهدائه إلى الأتابك أبي بكر بن سعد أمير فارس، مع مدح هذا الأمير وولي عهده.

شذور منها

١ — بسم الله الرحمن الرحيم، المنعم الذي أبدع العالم، الحكيم الذي وهب الإنسان البيان. لا كرامة لمن حول وجهه عن بابه. ملوك الأرض يخرون أمامه خاشعين، لا يعجل بالנקمة من عصاته، ومن تاب غفر ذنبه. الكونان معاً قطرة في محيط علمه. لا يغفل ذنوب عباده بل يسترها بحلمه. بسط على وجه الأرض مائدة كرمه للأصدقاء والأعداء لينالوا منها على السواء. ليس كمثل شيء. ملكوته أبدى. وضع تاجاً على رأس بعض، وأنزل آخر عن عرشه إلى الأرض. من وراء الحجب يرى كل شيء، وبكرمه يستر كل الخطايا. حتى الشيطان رأى مائدة كرمه فسأله نصيبه منها. قريب من المنبوذين، مجيب لدعاء الحزوين، من لا ذا شيء خلق كل شيء. من ذا الذي يستطيع كشف أسرار صفاته؟ وأي عين تنفذ إلى نطاق جماله؟

٢ — لا تظن يا سعدي أن أحداً يسعه السر في طريق الطهر إلا على آثار محمد، فهو زعيم الأنبياء والهادي إلى سبيل النجاة، وشفيع البشر، وسيد الموقف يوم الدين. بأي مناقبك يستطيع سعدي أن يحيط أيها النبي؟ رحمة الله وسلامه عليك وعلى صحابتك أبي بكر المريد، وعمر مذل الشيطان المريد، وعثمان المتهجد وعلى الفارس. إلهي، بحق بني فاطمة إلا فتمتحت لي بمقالة الإيمان.

٣ — جبت كثيراً من الأقاليم، وأنفقت الأيام في صحبة كثير، وجنيت المتعة والنفع في كل ركن، وقطفت السنايل من كل حصاد، غير أنني لم أجد كأهل شيراز — على موطنهم نعمة الله — فروابطي بهم جذبت قلبي إليهم من الشام وبلاد الترك على بعد، وأسفت أن أعود إلى أصدقائي من بستان العالم صفر اليد، وتفكرت: «يعود السائحون بسكر مصر هدية لأحبائهم وأنت لا تملك سكرراً، وعندك كلمات أحلى منه،

السموات . وابنه ولي التاج والعرش شاب تفتح له الحظ
وأشرق القلب ، فتي في الهمة ، شيخ في التدبير :
خير ما أثمرت تلك الدوحة العلية ، فهو كأبيه حمى
الدولة ، منصور على الأعداء ، وقاهما الله سوء .

الباب الأول — في العدل

معاني الباب

خصص سعدى هذا الباب بالأمراء وأمثالهم من
الحكام وهو على طريقة المربين ضرب لهم المثل بمن
سبقوهم من الحكام الأخيار والأشرار ووضح عقبي
هؤلاء وهؤلاء ، وقد يستطرد خلال قصصه ، بنصائح
مباشرة أو غير مباشرة يعمهم بها ، أو يخص الأتابك
أبا بكر الذي أهدى إليه الكتاب ، أو يمدحه على حسن
سياسته ، أو يدعو له بخير .

وقد حدد للأمير صلته بمواطنيه ومن حولهم :
فحدد له سياسته الواجبة مع نفسه ورعيته والوافدين
عليه ، وسياسته مع عماله وجيشه وجيران دولة في السلم
والحرب . وألزمه في السياسة رضا الأمة عنه ، ومسئولية
أكبر وأثقل هي رضا الله . فقد يرضى أمته بالخداع ،
ولكنه لا يرضى الله عالم السرائر إلا بالاخلاص ، فإذا
فرغ من حساب الأمة بسلام ، بقي أمامه حساب
الله ، وهو بلاء أعظم ، ولا مفر منه .

والأمير الأمثل عند سعدى هو عمر بن الخطاب
مضرب المثل في العدل والقوة واللين ، والإحاطة
بمصالح الرعية ، وبذل أقصى الجهد في حياتها
ومرضاتها ومشورتها ، دون غفلة لحظة عن حساب الله
مهما يبذل في خدمتها . ومن شعوره الكامل بتبعاته كلها
يستمر شعوره بالتقصير ، فلا يبطر ولا يتعجر ، ولا

وسكرك لا يطعم ، ولكن عارفي الحق يقبضونه في
احترام » . وحين شيدت صرح الثراء زينته بعشرة
أبواب تربوية : أولها في العدل ، وثانيها في الإحسان ،
وثالثها في العشق ، ورابعها في التواضع ، وخامسها في
الرضا ، وسادسها في القناعة ، وسابعها في التربية ،
وثامنها في الشكر ، وتاسعها في التوبة ، وعاشرها —
وهو ختام الكتاب — في المناجاة . وفي سنة خمس وخمسين
وسمئة من هجرة النبي حفل الكثر بجواهر البلاغة .
إن الكساء من حرير صيني يحتاج إلى حشو من قطن ،
فإذا كنت من طلاب الحرير فلا تغضب ، وكن كريماً
بالصفح عن القطن ، فقد سمعت أن الله الرحيم يعفو
يوم الدين عن الخطاة من أجل الأبرار ، وإذا وجدت
خطأ في كلمتي فكن كذلك ، وإذا أغضبك بيت بين
ألف بيت تسرك فأمسك عما تجد من ذلك . لا مرأ أن
توالفي في فارس ليست إلا كالمسك في أرض ختن (١) .
سعدى يقدم الورد إلى البستان في غبطة ، وشعره كالتمر
حلو غلافه ، فإذا فتحته ظهر صخره (٢) .

٤ — ومع رغبتى عن مدح الملوك دونت هذا
الكتاب باسم ملك خاص ، لعل الأتقياء يقولون :
« سعدى الذى فاق غيره في البلاغة قد عاش في عهد
أبي بكر بن سعد ، وأنا فخور بعهدك كما فخر النبي
بمولده في عهد أنو شروان العادل . فما ولي بعد عمر
كهذا الأمير في عدله وتقواه . فن أراد ملجأ من
العوادى فلا ملجأ له غير دولته ، إنه معتر بالله ، متواضع
لخلقه ، قوة الضعيف ، وعدل المظلوم ، وعون المحتاج .
وبهذا الكتاب سيبقى مذكوراً بقاء الشمس والقمر في

(١) مقاطعة مشهورة بكثرة المسك وجودته .

(٢) أى ظاهره حلو لطيف ، كى يقبل ، وباطنه صلب
شديد ، ليفيد ، وهكذا كل دعوة إلى الاستقامة ومعصية الأهواء .

يفتر ولا يتكبر ، ولا يمن بفضل ، لأن الله وحده مصدر الخير فهو المنعم على خلقه بما شاء كرمه .
الحكم بلاء للحاكم والمحكومين . فينبغي للأمير أن يتقى الله في كل نية وعمل ، موقناً أنه أمام الله كسائر عبادہ . لا يميزه منهم إلا كبر حظه من التبعة ، فليضرع إليه في محنة كالمساكين ، ويستمد منه العون في كل مسعى ، لأنه بغيره ضعيف ، ينبغى ألا يغار من سابقه إلى الحكم ، بل يظهر فضلهم ويحفظ لهم تراثهم ، فهو ذاهب كما ذهبوا ، ولن يبقى له غير حسن ثوابه عند الله ، وحسن أثره بين الناس ، ولا يقدم العنف على المشورة والرضا ، وإلا كان جباراً بغيضاً ، ولا يسرع بالعقوبة في موطن ولا سيما حيث لا يدرك القوت ، وأن يحيط بخفايا دولته وجيرانها ، فالراعى الناصح لا ينام وقطعانه ساهرة تنهشها الذئاب ، ولكنه إذا سهر ونفى عنها أعداءها نامت مستريحة سعيدة به ، وليقدم راحة الرعية على راحته ، ولا يتنحى عن خدمتهم ، ولو للنسك والعبادة ، فخدمتهم أفضل من كل عبادة ، وهم مصدر القوة والخير ، فهو شجرة وهم جذورها ، ولا حياة لشجرة دون جذورها ، وكل جذر يقطع أو يجرح يضعفها . وينبغي أن يعطى الأمير كل ذى حق حقه لا يخشى فيه لائمة ، فهو ملجأ الشاكين ، والشاكي لا يقصده حتى يثق بحمايته وعدله . وللمحسن مكافأته ليستبق الناس الخيرات ، كما للمسيء جزاؤه ليرتدعوا عن الإساءة ، ولكن على ألا تفزع العقوبة الناس فتفسدهم ، فلتكن المؤاخذة على قدر الإساءة ، ولا يعجل بها قبل الثقة من وقوع الإساءة وضررها ، وليلتمس للمسيء أعذاره ، فيعفو عنه بعذره أو توبته أو نسخ ذنبه ، وإذا لم ينفع فيه ذلك لزم سجنه . وإذا ثبت أنه شرير نكل به ، ولو كما تجث الشجرة الخبيثة . وإذا

حرك الغريب فتنه الدولة نفى عنها ، ولكن لا إلى غير بلده ، والعفو عن الضعفاء أجدر ، وسد حاجة سائل أفضل من فك ألف رقبة ، والظلم رأس الشر ، فكل مكان تمتد إليه يد ظالم لا تتفتح فيه الشفاه لا بتسام .
ولنما للأمة خراجها ينفق في مصالحها باقامة العدل والأمن بينها ، وحراستها من أعدائها ، وتهيئة مرافقها العامة ، وليس للأمير إلا رزقه بقدر ما يحفظه كأوساط رعيته ، لا لإرضاء أهوائه الخاصة ، وعليه ألا يجبي من خراج في أمة إلا بقدر ما يلزم لكفالة مصالحها ، وأن يحمى التجار الغرباء بروحه ، فهم يروجون السلع بين دولته وغيرها ، وهم الألسنة بين الأمم ، فإذا حوسنوا نشروا الثناء عليه وعلى دولته ، فكثر الوافدون عليها ، فراجت التجارة واتسعت الأعمال ودرت الأرزاق ، وإذا أسينوا شنعوا به وبدولته ، فكسدت الأسواق وبارت الأعمال والأرزاق .

وعلى الأمير أن يختار عماله من ذوى الأمانة والكفاية بين أهل الرأى والتجربة والحسب والقوة ، فهم أعوانه الذين تعمر بهم الدولة ، فإذا أحسن اختيارهم كان همهم رضا الله ومصلحة الرعية ، وإذا أساء اختيارهم أفسدوا وكان همهم تمليقه ، وأسرفوا في امتصاص دماء الخلق ، وهتك حرمتهم ، من أجل أهواء أنفسهم وأهوائه ، وليحذر تولية السفلة ، فالمفلس من الحسب لا يخشى حاكمه مهما يرهبه ، ولا تجديبه طاعته غير الإساءة .
وعليه أن يرصد على ولاته رقباء أمناء عقلاء مع الحذر من اجتماع الوالى والرقيب عليه ، وليكن لكل مهمة عامل واحد منعاً للاهمال والخيانة ، وهذا مع استمرار الرقابة ، فالقافلة في أمان طالما حذر اللصوص بعضهم بعضاً ، ومن عزل لتقصيره نظر في أمره بعد أجل لاستصلاحه ، ولا يجوز سماع الوشاية بعامل دون بينة ،

كما لا بد من مداومة الإحسان إلى العامل المحسن بعد تركه الخدمة .

ولا بد للأمير من رعاية جيشه في السلم ، فجنده عدته في الشدة ، وإذا لم يكرم الجندي في السلم لم يرخص نفسه في المعركة ، ولا بد من أن يختارهم ويجربهم للتحصن بهم من العدو ، وأن يكسبهم بالمال والمودة ، فلا فلاح لإمارة بغير رعاية المحاربين وأهل الرأي ، ومن الحكمة دفع العدو بالسياسة والحاسنة قبل استعمال القوة ، فان خاب الرأي حقت القوة . ولا بد في الحرب من التعويل على الشجعان فلا يغلب الأسد إلا أسد ، ويستشار أهل الحنكة والتجربة من الشيوخ ، فهم أنفذ في الحرب من الشبان الضارين بالسيوف . ولا يعهد بالأمور الجسيمة إلى الأحداث ، ولا بالحرب لغير أهلها ، ويبعد عنها المترفون ، وإذا تمرد جندي على قائده قتل ، إذ لا خير فيه لأمره ، كما يقتل الهارب من المعركة ان لم يقتله عدوه ، فالهارب لا يضيع نفسه فحسب ، بل يسىء إلى الجيش وأبطاله جميعاً . وأقوى ما يؤلف بين الجند توحدهم في الجنس والمعيشة واللغة . وحذر العدو عند المشاركة واجب كحذره عند القتال ، والبيات أولى بالحذر ، فليكن الجند على تعبئة عند النوم ، كما هم في اليقظة نهاراً . ولا أمان للأمير إذا وقع بين عدوين ولو كانا متباغضين ، فإذا اتفقا وجب المكر بأحدهما لإسكاته ، والقضاء على الآخر ، وإذا لج عدو في خصام وجب سحقه ومخالفة خصمه . وإذا وقع الخلاف في جيش عدو كان ذلك راحة منه ، ولا بد من المحافظة خفية على الرجعة إلى الصلح مع اظهار الإصرار على الحرب . وإذا أسر الأمير قائد العدو حقت الأناة معه ، فابقاؤه عليه أدل على الفضل ، وأكرم من القتل ، وأولى أن يحمل العدو المحارب على المعاملة

بالمثل ، فيكتفى بأسر من يقع في يده . وإذا فتح الأمير بلداً اكتفى بأسر صاحبها ، وعفا عن رعيتهما ، وأوسعهم عدلاً ورخاء ، حتى ينتزع من قلوبهم كل ولاء لصاحبهم بالأمس ، ولا فلاح بغير حفظ السر في السلم والحرب ، فقد يكون بين الأصحاب جواسيس للعدو ، حتى وجهة الجيش لا بد من كتمانها بالتورية ، فقد أظهر الإسكندر أنه يقصد الغرب حين عزم الزحف إلى الشرق .

الباب الثاني — في الإحسان

معاني الباب

سعدى صوفى عملي ، فلباب الدين عنده العمل الصالح مع نية الخير ، ولهذا نجده يعد الإحسان مع الاخلاص ، أفضل من الصلاة والصوم مع الطمع والشح والعدوان . والإحسان عنده آية الصلاح الإنساني وثمرته ، وهو حق لكل الأحياء من الناس والحيوان ، وهو أوجب لمن هم أحوج إليه ولا سيما طالبوه ، ومنهم اليتامى والفقراء والعجزة والمدينون وأبناء السبيل وعامة الجيران وهم أقرب . « كيف تطيب لك قبلات ولدك ، واليتيم بجانبك يبكي ولا من يحتضنه أو يخفف دموعه ؟ إن جنابات العرش لتهتز لبكائه ، وكيف تسعد بنعمتك وأصحاب الحاجات حولك يتلوون من الشقاء ؟ » . ينبغي ألا تقبض يد الإحسان عن أحد لعصيانه الله أو كفره به ، فالله يحتمل في ملكوته العصاة والكفار . وللحيوان حقه فلا يضره أو يتخلى عن نجده إلا قاس ظلوم . وليس من المروءة إزعاجه ولو بنفيه عن قطيعه ، فن علقت به نملة إلى غير موطنها حق عليه أن يردّها إلى سربها في موطنها . والإحسان أقوى دافع إلى تأليف القلوب ، وأكبر مطهر لها من الرذائل ، وقد

الباب الثالث — في العشق

معاني الباب

هنا يكشف سعدى جانباً من أعمق جوانب نفسه وعقيدته ، كما يكشف كثيراً من آرائه في الله والمعرفة والوجود والقيم ، فيلتقي كثيراً بالفيلسوف اسبينوزا إمام القائلين في العصر الحديث بوحدة الوجود .

وهو يقسم الناس قسمين : أهل الصورة الواقفون من الأشياء عند الظواهر ، وأهل المعنى الواغلون إلى البواطن . الأولون تربطهم أهوائهم بعروض الدنيا ، فهم عميان محجوبون عن الحقائق بزخارفها المبهرجة ، مقيدون بجهالتهم في متاهات الأباطيل . والآخرون يحاولون قمع شهواتهم وتصفية نفوسهم — بالرياضة والمجاهدة وإسعاد الخلق ، حتى ينجلي لبصائرهم لباب الحقيقة في أصلها ، ولا تزيدهم الصعوبات إلا تهافتاً على الجهاد إليه في عزيمة وصبر . ملأ الله نفوسهم فهموا في حبه شهداء لجماله ، فهم في الله وبالله والله ، يجدونه في كل شيء ، وهذا سر قوتهم وسلطانهم وأن ظهوروا ضعافاً مساكين . وكل همهم في الدنيا الرجوع إلى الله فأنين في الإيمان به وخدمة خلقه ، للاتصال به ، والاتحاد معه بالحب . وليس هناك إلا وجود واحد حق هو الله ، فالعالم إلى جانبه صورة زائفة باطلة .

من مقدمة الباب

سعيدة أيام المفتونين بحب الله ، سواء كانوا حزاني لانفصالهم عنه ، أو مغتبطين بوصالهم في حضرته . هم صعاليك يفرون من سلطان الدنيا ، وعلى أمل لقائه يشربون خمر العذاب ، فذلك خير لهم وإن بقوا صامتين ، وما في الصبر عن تذكر الله خير . فسوسة الشجرة حلوة

يخضع الإحسان من العدو ما لا يخضعه السيف ، ويربط الحيوان إلى صاحبه أشد مما تربطه سلاسله . فإذا زاد الإحسان الشرير شراً حق الامساك عنه . وليس يعد من إحسان المرء إلا ما يمد به يده ، لا إحسان أهله عنه . ولا مروءة لمن لا يعمل من أجل الرزق ويحسن القيام عليه ، ويدخر من السعة للضييق ، حتى يكفى نفسه وأهله ذل السؤال ، ويبذل الفضل للمحتاجين ، وليس يأكل من كد غيره إلا مخنث . والنية قبل العمل في كل إحسان ، فالبذل للمراعاة رذيلة تحبط أثره .

من مقدمة الباب

إذا كنت عاقلاً فاقصد إلى جوهر الحق ، فهو دائم والقشور فانية ، ومن ليس ذا معرفة ولا كرم ولا تقوى فليس إنساناً إلا بصورته . إنما ينام في سلام تحت التراب من بث الطمأنينة في القلوب . انفق ذهابك ومتاعك فالرياح ستذهب به من قبضتك ، افتح باب كنزك الآن فلن يكون المفتاح غداً في يديك . وإذا شئت اتقاء الألم يوم القيامة فلا تنس المتألمين حولك . لا ترد الفقير عن بابك صفر اليد ، خشية أن تدور غداً على أبواب الغرباء . ولتسد حاجة غيرك خشية أن تحتاج غداً إلى عون الآخرين . أو لست تبتهل إلى معبودك ؟ . . . فلتكن إذن كريماً ، ولا تلو وجهك عن يبتهلون إليك .

قصة في فعل الخير مع الأشرار

قالت امرأة لزوجها « لا تشتري الخبز من الخباز الذي في شارعنا بل من السوق ، فانه يريك القمح ويبيع لك الشعير ، ولا عملاء له غير أسراب الذباب » فأجابها : « يا نور حياتي ، لا تعبني بحيله ، فما أقام هنا إلا أملاً في معاملتنا ، وليس في المروءة أن نخيب أمله فينا » . . . أسلك سبيل أهل الحق ، وإذا نهضت على رجليك فمد يدك إلى العائرين .

ذات غير : قرب هابط علا ، ورب عال هبط ،
والحسنات والسيئات محفوظة .

ولا يغتر التقى بتقواه ، أو يتعالى على الخطاة ،
فالتواضع من آيات التقوى وهى تنافى الجهل والخيلاء .
ولا يغتر العالم بعلمه ، فغروره به آية فراغه وعقمه ،
والعلم إذا خامر النفس هذبا . خلق الله البشر من أصل
هين ، فبواهم بفضله أعلى مكانة ، فالتواضع كان ولم
يزل طريقهم إلى الرفعة . ومن داخله الغرور مسخه
فأذله . وكلما زاد فضل الله على امرئ كان تواضعه أجدر
وألزم . ومن النقص ازدراء الضعاف والجهلاء والمساكين ،
ومن الحماقة الاستهانة بالعصاة ، فباب الرحمة مفتوح
دائماً أمام كل تائب ، والخواتم غيب ، ورحمة الله
تسع كل شيء . وآية المروءة السماحة ، فليبسط امرؤ
كنف عطفه للخلق جميعاً ، فيبارك أقل فضلهم ويقبل
عذرهم ويحتمل سوءهم ، ويتجاوز عن خطاياهم راضياً
شاكراً لله . وليكن طالب حق وحكمة حيث وجدها ،
قرب جاهل أو غريب يصيب حيث يخطئ العالم أو
الحجرب . والله وحده مبدع الخلق وحافظهم ومدبرهم كما
اقتضت حكمته ، ومن ورائهم علمه ، وهو وحده الديان .

من مقدمة الباب

أنت — يا مخلوق الله — من التراب خلقت ، فينبغى
أن تكون متواضعاً كالتراب . لا تكن جشعاً ولا طاغياً
ولا صلب الرأس . إنك من التراب ، فلا تكن كالنار :
عندما ترفع النار رأسها الخفيف كبرياء يخفض التراب
رأسه تواضعاً . ولهذا كانت النار متجبرة والتراب
وديعاً . خلقت الشياطين من النار وخلق البشر من
التراب :

قصة عمر والسائل

سمعت أن عمر في خلافته مر بمكان ضيق فوطئ
قدم سائل مسكين ، فعنفه السائل قائلاً : « أو أنت

كثمرتها من يد الصديق . والأسرى في حبائل حب
الله لا يبحثون عن مهرب . إنهم يعانون الملام ولكنهم
في وحدة تأملاتهم ملوك ، وطريقهم مجهول . هم
كالفراش يتهافون فيحرقون أنفسهم في نار الحب .
معشوقهم في صدورهم وهم مع ذلك يبحثون عنه ،
والنبيوع بقربهم وشفاهم تحترق ظمأ إليه .

من حديث بالديمومة

حبك يردك جزعاً ثائراً ، وبهذا الاخلاص تضع
رأسك عند قدم حبيبك لتنسى العالم ، وحين تهون
الثروة في عينك يستوى لديك الذهب والتراب . تقول
أنه ساكن في عينك ، وحين تغلقهما يكون في رأسك ،
وحين يطلب حياتك تضعها في يديه ، وحين يشهر
سيفه على رأسك تمد عنقك إليه . هكذا يورث الحب
الأرضى هذه الحرية ، ويطلب هذه الطاعة — فهل
تعجب للسالكين في طريق الله حين يغرقون في محيط
الحقيقة ؟ .. إنهم في ذكرى حبيبهم يستدبرون العالم
وهم سكارى بالساقى الذى فتنهم فأهرقوا الخمر .
لا دواء يشفيهم ، فلا أحد يعرف آلامهم . بصيحاتهم
يقتلعون الجبال ، وبتأوهاتهم يبعدون الممالك . وبكاؤهم
ليلاً يغسل من عيونهم رغبة النوم . هم غرقى في بحار
الحب ليل نهار ، فهم في وهلم لا يميزون بين ليل
ونهار .

الباب الرابع — في التواضع

معانى الباب

لينظر المرء مم خلق ، حتى يتطهر من الغرور والعجب
بما أوتي من سلطان أو مال أو جاه أو صحة أو جمال
أو ذرية ، فكل ذلك من فضل الله عليه ، لا ثمرة جهده
فحسب . وكل ذلك من متاع الدنيا وهو زائل . ولاحظ
من الكرامة لمتاعها إلا بما يهيىء للعمل الصالح . والدنيا

أعمى ؟ » فأجابه متعطفاً : « لست أعمى ، وقد آذيتك بلا علم فسامحني » . إذا اتقيت حساب الله فاغفر خطايا من يخافك ، ولا تجحف برعيتك أيها الجبار ، فهناك جبروت فوق جبروتك .

الباب الخامس — في الرضا

معاني الباب

لم يوث الإنسان من العلم إلا قليلاً ، فرب محنة يضيق بها وهي نعمة ، وممتعة يسر بها وهي نقمة ، وليس الإنسان وحده في الوجود ولا هو حافظه ، ولا قدرة له على تدبيره ، أو فهم الحكمة من وراء تصاريفه ، فليؤمن برحمة الله وحكمته ، وليسلم بقضائه وقدره . للإنسان إرادته وهي من إرادة الله ، وله قدرته وهي من قدرة الله ، والتبعة في الوجود على حسب القدرة والإرادة . والإنسان قابل للترقي إلى أعلى الدرجات ، ولكنه بجهد في حمى الله . وكل شيء من الله وإليه ونسبة شيء إلى غيره مما يחדش الإيمان بأحدثه .

من مقدمة الباب

السعادة تأتي من فضل الله لا من قوة الأقوياء . وإذا لم يأت الخير هبة من عليين لم تستطع القوة تحصيله . إن النملة لا تشقى بضعفها . والنمر لا يأكل بفضل قوته . وإذا عجزت اليد عن بلوغ السموات فلتقبل حظك الذي يأتيك محتوماً . وإذا قدر لحياتك أن تطول لم يقتلك الثعبان ولا السيف . وإذا جاء يوم أجلك قتلك الترياق أكثر من السم .

قصة الطبيب والقروي

لم يستطع قروي أن ينام ليلة لألم في جنبه ، ولما جاء الطبيب قال لأهله : هذا الألم ناشئ عن أكله بعض

ورق العنب ، وأنا أعجب كيف عاش الليلة ، فإن سهام التتار كانت خيراً له من تناول هذا الطعام العسر » في تلك الليلة مات الطبيب ، وبعدها بأربعين سنة كان الفلاح لم يزل حياً .

الباب السادس — في القناعة

معاني الباب

طمع المرء فيما عند غيره من متاع الدنيا آية الجهل والخسة ، وتهافته عليه خليق أن يستعبده وينفر منه أقرب الناس إليه . والسعادة ليست في الجاه أو السلطة أو المال ونحوه من متاع الدنيا بل في الفضيلة . وطريق الفضيلة كبح النفس والبدن عن الشهوات المذلة . وقد يكون الملوك والأثرياء ونحوهم أكثر شقاء من المساكين . والنفس قابلة للتأديب بالرياضة والمجاهدة حتى تنصرف إلى ما هو أولى بها وما هي أولى به . ومن قنع بيسيره سد حاجته فكفاه ، ومن مد أطاعه لم يكفه شيء : فكلما حاز مطلباً تفرغ إلى غيره ، وإن لم يزد سعادة . والأطاع حبال المعاطب ، وإن كانت في ظاهرها الكفيلة بتحصيل المطالب . ومن طلب السعادة والسلامة فليطهر نفسه من خبائث الشهوات ، وعيشه من خبائث الموارد . وبقدر ما يترف المرء تطمس بصيرته ، وكما يردع غواياته يفتح قلبه وترتفع فضيلته فيقرب من الله . والله لا يرزق خلقه على قدر كرامتهم عنده أو سعيهم بما عندهم من حول وحيلة ، ولا يحرمهم لحوالهم عليه أو عجزهم عن المعاش ، فهو مصور الأجنة في الأرحام ، ومقدر آجالها ، وكافل أرزاقها ، بفضلته الشامل ، فلا تضيع مروءتك بالأطاع الفارغة .

من مقدمة الباب

لا يعرف الله ولا يعبد من لا يقنع بحظه ، فقل للطامع : « القناعة غنى ، أيها القلق اسكن فالعشب لا

ينمو على الصعيد الصخري المضطرب . إذا كنت إنساناً تحس فلا ترفه جسدك ، وإلا أتلفت ذاتك . العقلاء يطلبون الفضيلة ، ومرفه جسده خاو من فضل . الأكل والنوم دين الحيوانات ، واحتضانه دأب الحمقى . سعد امرؤ ذو وجه ينشط خلال تأملاته ، فيعد نفسه للرحلة الأخيرة عن طريق معرفة الله . ومن لا يميز بين النور والظلام يستوى عنده وجه شيطان ووجه حورية . كيف يستطيع الصقر أن يطير إلى السماء وجناحاه مرتبطان بحجارة الأطعام . اهتم بالعبادة أكثر من الطعام تصر ملائكة . ابدأ بمعرفة أخلاق الإنسان ثم فتش عن خصائص الملائكة . حسبك من الطعام ما يسد جوعتك ، فكيف يهب الخيرات من لا يستطيع من تخمة أن يتنفس . من ملأ بطنه طعاماً خلا رأسه من الحكمة . والفريسة لشراستها تقع في الشرك .

قصة ملك خوارزم

في بكرة صباح زار طماع ملك خوارزم ، وسجد له مرتين ، فسأله ابنه : « يا أبت ، أو لم تقل أن مكان الحج مكة ؟ فلم تكرر السجود اليوم أمام الملك ؟ » . القناعة ترفع الرأس ، فاذا امتلاً طمعاً لم يرتفع أعلى من الكتفين . ومن طوى بعض شحه استغنى عن أن يتملق أحداً بقوله : « أنا عبدك وخادمك » . والسؤال كفيل أن يطردك من كل مجلس ، فانقه عن نفسك حتى لا تطرد .

الباب السابع — في الترية

معاني الباب

سعدى صوفى عملي إنسانى ، فالفضيلة مطلبه الأول وهى عنده إنسانية بل كونية ، أو هى صلاح إنسانى كونى لا قومى ولا وطنى ولا عرفى ولا معاشى ، والإنسان أولاً قائم فى مملكة هى العالم كله ، والله صاحبها ومدبرها

فهو أولاً فرد فى رعية الله عامة ، ثم هو فرد بين الناس فى أمة أو جماعة أو أسرة ، وقد يكون أباً أو ابناً أو زوجاً أو صديقاً . . . وله فى كل وجه من هذه الوجوه حقوق وعليه واجبات بحسب ذلك الوجه .

والتقوى قوام صلة المرء بربه وبخلقه ، فينبغى أن تكون باعث كل نية وسعى . ومبدأ الفضيلة — قبل المعرفة أيضاً — العفة ، أو كبح شهوات النفس والجسد بالرياضة والمجاهدة حتى يملك الإنسان أمره ، وتتجلى الحقائق لبصيرته بالعلم والحكمة . وليس كالشهوات موجباً للضلال عن الخير والحق . وينبغى للناس أن يتواصلوا على أساس المعاني الجميلة التى يتوخاها كل منهم فى نفسه وغيره ، لا على أساس فتنة المظاهر أو المنافع العاجلة . ومن الواجب اسداء الخير والعون لكل ذى روح .

كما ينبغى اجتناب كل قول أو عمل يفسد المودة بين الناس كالظلم والسرقة والفظاظة والغيبة والنميمة والحقد والحسد والطمع والترف والبغاء . وإن الرذائل الخفية شر من الظاهرة : كالغيبة فهى أقبح من السرقة ، وكأفشاء السر فقد يثير فتنة . والتحام الأمة فى حرب مع عدو أهون من انتشار الأراجيف وهرج العامة . ومن أودع أحداً سراً فأفشاه فهو أحق منه باللوم . وقولة السوء دون ضرورة — ولو بالحق — رذيلة . والغيبة شنة حتى لمن هم مضرب المثل فى السوء كالحجاج الذى هو مثل الظلم الشرود . وليس يتتبع عيوب غيره إلا معيب .

وينبغى للمرء أن يتوخى فى الزوجة عفتها وطاعتها وحسن تدبيرها ولين كلامها ورعايتها أمر بيتها ، فكل ذلك كفيل أن يطيب عشتها ، أو يحببها ، ويغري باغتفار تقصيرها ، ولو لم تكن جميلة ، وعلى المرء أن يثق برجولته قبل الزواج ، وأن يتجنب حسان الغلمان ونساء غيره ، فأهله أطيّب له ، وجمال المرأة أو جاهها أو مالها بلاء مع سوء خلقها وتطاولها . والسجن أحب

من بيت تسوده الشحنةاء . ولتلتزم المرأة بيتها ، وتتجنب معاشره الغرباء .

كما ينبغي تعهد الولد وحسن القوامه عليه منذ الصغر ، ليحفظ ماضى أبيه ، فيبر الولد مع تجنب تدليله ، لأن تدليله مفسده له ، وليبعد عن صحبة الأشرار اتقاء عدواها ، ويمنع من الاختلاط بالنساء منذ العاشرة ، ويثقف بالمعرفة والحكمة ، ويعلم حرفة يرتزق منها في معاشه ، ولو كان له من أبيه كنز قارون . فالكنز الموروث قد يضيع ، وكيس الحرفة دائماً ملىء . والولد الفاسد خير أن يموت قبل أبيه ، ومن ربى ابنه على الاعتماد على نفسه كفل حريته فلا يكون أسير أحد .

من مقدمة الباب

من يكبح هواه عن الرذائل أعظم قوة من رستم وسام . وليس أحد من خشية عدوه كما تكون أنت عبداً لشهواتك . نزعات السوء في سريرتك كالدم في عروقك وإذا غلبت أهاؤك استبدت بسلطانها عليك حكماً وثورة ، ولكنها تستسلم حين ترى قبضة العقل المدرعة . لا يتجول أهل الرية ليلاً حيث الحراس ساهرون . والرئيس ان لم ينكل بعدوه أضاع أمامه سلطانه . وكلمة واحدة تغني إذا كان الإنسان يعمل بما يقرأ أو يسمع .

حديث في النيمة

لا تقل الشر في الخير ولا في الشرير ، فتخطي في حق الأول وتكتسب عدااء الأخير . من يذم غيره فانما يكشف عورات نفسه . وإذا ذمت أحداً فأنت مذنب ولو كان ما تقول حقاً .

من حديث في الزوجة

الفقير ملك إذا كانت له زوجة مطيعة عفيفة . لا كآبة مع متاعب النهار إذا وجدت في دارك من تمسحها عنك ليلاً . إذا كانت المرأة طاهرة لينة اللسان

فلا يسأل : أجميلة هي أم قبيحة . وإذا كانت خيرة الطبع فهي أرضى من الجميلة ، لأن اللطف يستر زحام العيوب . تجنب الحورية الرديئة الطبع . حرم نعم عليين من كانت له امرأة سيئة ، ولا منقذ منها إلا الله . السجن أفضل من بيت تسوده الشحنةاء . والرحيل عن البيت سرور إذا كانت قعيدته امرأة رعناء . والسعادة محجوبة عن كل بيت يعلو فيه صوت الزوجة صوت زوجها . وإذا عرفت زوجتك طريق السؤال فاكبحها ، أو كن قعيد بيتك كامراً . احجبها عياء في محضر الغرباء ، وإذا هي تركت بيتك فالى القبر . واتخذ زوجة جديدة كل ربيع فتقويم العام الماضى لا يؤدى غرضاً . ومشيك حافياً خير من سعيك في حذاء ضيق .

الباب الثامن — في الشكر

معاني الباب

ينبغي ألا ينقطع المرء عن شكر الله جزاء نعمه ، ومهما يشكره فهو عاجز أن يفهم ما هو أهله من شكره . والشكر من أسباب دوام النعم . وخير وسائله إسعاد خلقه بعمل صالح ولو كان هيناً . فأهون العون عند محتاجه عظيم ، وخير البر أعجله . وليس يعرف قدر نعمة إلا المحروم منها . ولينعم المرء كما أنعم الله عليه ، فهو لا يعطى غير ما آتاه الله ، لا ما حصله هو بقوته فحسب . نعيم المرء بما عنده قد ينسيه المحروم ، فلا يذهل — أثناء نعيمه — عنه ، أو يترى لحظة في اسعاده .

من مقدمة الباب

لا أستطيع أن أفى بحق الشكر لذلك الصديق ، ولا أعرف أولى منه بالشكر . كل شعرة في جسدى هبة منه ، فكيف أشكره لكل شعرة ؟ الحمد لله الأجل الذى خلق الوجود من العدم . انظر كيف فصلك من الطفولة إلى الشيخوخة في سمت قويم . لقد خلقتك طاهراً

فعش طاهراً ، حتى لا تموت ملوثاً بالذنوب . لا تدع التراب قائماً على المرأة فيزداد الكدر حتى يستعصى على الجلاء . يا عابد نفسك ، لم لا تقصد من يهب يديك القوة ؟ إذا صنعت خيراً بجهدك فلا تعبد نفسك ، واعلم أن ذلك بنعمة الله . أنت لا تقوم بمحض قوتك . فالمبدع الخفى هو الذى يهبك كل لحظة .

من حديث بحال المتعبين

إنما يجهل قيمة يوم الهناء من لا يرى الشقاء . الشتاء قاس على الفقير ، والغنى لا يحذره . إذا كنت سريع القدم فاشكر الله حين ترى العرج . ماذا يعرف من قيمة الماء سكان شواطئ جيحون ؟ سل عنه من احترقوا في وقدة الشمس . إنما يعرف قيمة الصحة من أنهكت الحمى عافيته . كيف يطول الليل عليك وأنت ناعم المضجع على سريرك ؟ فكر فيمن يتقل بالحمى ، فلا يعرف ملل الليل إلا مريض .

قصة الحمار الحكيم

انقطعت الطريق في صحراء برجل فيكى قائلاً : « من في هذه الصحراء أشقى منى ؟ » فأجابه حماره : أيها الآدمي البليد ، لم يطول نواحك لجبروت القدر ؟ أمض - ولو لم تجد حماراً تمتطيه - كى تقدم الشكر على أنك لست حماراً يمتطيه الناس . »

الباب التاسع - في التوبة

معاني الباب

مسرات الحياة وآلامها إلى فناء ، وكل من فيها كذلك ، وإلى الله مصير خلقه جميعاً . والمرء مسئول عن عمله ، ولا مرد له بعد الموت إلى الحياة لإدراك فائت ، وهو ناقص وخطايا كثيرة ، ولكن باب التوبة مفتوح دائماً ، ورحمة الله تسع كل شيء .

فليسرع مذنب إلى التوبة النصوح . لأن الغيب سر ، والموت قد يفجأ قبل فرصة جديدة ، وليخجل المرء من ذنوبه ويتب عنها قبل افتضاح خزيه يوم الحساب ، فالله مطلع على الأسرار ولكنه ستار . ولا يستهن امرؤ بذنب - ولو كان صغيراً - أن يرديه ، أو يستعظم كبير ذنب فعفو الله أكبر من جميع الذنوب . والله يحب التوابين ويمد لهم المعونة للصلاح ، وليس كدموع الندم مطهر للخطيئة . الشقى من نسى الله فأنساه نفسه ، وغرته زخارف الدنيا فأسرته في حبائلها حتى خسر نفسه وأضاع آخرته ، وأحزم الناس من استعد بصالح الأعمال والتوبة من الخطايا قبل رحيله إلى الآخرة .

من مقدمة الباب

يا من أفنيت سبعين عاماً من حياتك ، ربما كنت غافلاً تلك الأيام التي ولت مع الرياح ! غرتك مطالب الدنيا فلم تتخذ الأهب للرحيل إلى ذلك العالم ، إذ يأتي إليك . وفي يوم الدين - حين تهبأ سوق الفردوس - سيميز كل امرئ بمكانه على حسب أعماله . فإذا كنت ذا كنز عظيم من الصالحات كانت صالحاتك هي ثروتك في الحساب ، وإذا كنت مفلساً فهو خزيك . وإذا كنت قد أضعت خمسين عاماً فاعتد سنواتك الباقية هبة فاخرة . وإذا كنت لم تزل قادراً على الكلام فلا تغلق شفتيك كالموتى عن اللهج بحمد الله .

عظة

الحياة طائر اسمه النفس وحين يفر الطائر من القفص لا يعود إلى الأسر . اعتبر ، فالعالم باق ولكن لمدة ، وإن لحظة تنفق في حكمة خير من عمر في حماقة . لم إذن نربط عقولنا بهذا الخان حيث تستريح القوافل ؟ أحبابنا مضوا ونحن لم نزل في الطريق . وبعدها ستبقى الأزهار يانعة في الحديقة ، ويستمر الأصحاب في المجلس معاً . وحين تبلغ شيراز ألا تنظف نفسك من

غبار الطريق ! يا من تدنست بتراب المعصية ، ما أسرع ما ترحل إلى مدينة غريبة . إلك وتطهر بدموعك من خطاياك .

الباب العاشر — في المناجاة

معاني الباب

العبادة بجوهرها لا بشعائرها ، والمعول فيها على الاخلاص لا المعاودة ، وكل عبادة فالى الله منتهاها ولو أقام العابد لجهله أو غفلته وسيلة بينه وبين الله . والله صمد سميع بصير ، والأعمال عنده بنياتها ، وعلمه محيط بخفايا السرائر من وراء شكول الظواهر ، وهو قريب إلى داعيه : يجب دعوته ، ويغفر زلته ، ويكشف محنته ، ويبسط عليه حمايته ، ويحقق رجاءه ، ولا حامى غيره ولا مجيب .

من مقدمة الباب

قم نرفع أيدينا في مناجاته ، فانها غداً ستكون عاجزة في التراب . لا تظن أن تضرعاتنا ترتد خائبة أمام باب الرحمة المفتوح أبداً . يا رب اشمطنا بخنانك ، فالذنوب أوغلت بين عبادك . أيها المنعم ، أنت بكرمك احتملتنا وبعطايك ورحمة حبك أقمتنا . وإذ فضلتنا على سائر

خلقك فأملنا أن تؤثينا العظمة اللائقة بمكانتنا في العالم . رب ، لا تصغرنى من أجل عظمتك ، ولا تخزنى بخطاياى ، ولا تسلط أحداً على ، فخير لى أن أنال العقاب من يديك . وحسبى الخزي فى حضرتك فلا تخزنى أمام رفاقى . إذا هبط ظل رحمتك على ، هان جلال السماء أمام عيني . وإذا وهبتنى تاجاً رفعت رأسى فارفعنى حتى لا يزدرينى أحد .

قصة وثنى

ولى أحد عباد النار وجهه عن العالم ، وربط حقويه لخدمة صنم ، وبعد سنوات حلت به نكبة ، فبكى عند قدمى الصنم ضارعاً : « أيها الصنم ، إني بائس فأعنى ، ومتعب فارفق بى » ، واستمر طويلاً فى ضراسته الخزينة بلا جدوى . كيف يستطيع الصنم انجاز رغبات إنسان ، وهو عاجز أن يدفع ذبابة عن نفسه ؟ تحسر الوثنى وقال له : « يا أنت قدماك مربوطتان إلى الضلال ، ومن الحق أن عبدتك سنين . انجز رغباتى وإلا طلبتها من الله » . وبينما وجهه ملوث بالتراب عند الصنم أنجز المهيمن رغبته . وسمع هذا رجل تقى ، فخجل ، فسمع صوتاً من عاين فى أذن سره قائلاً : « هذا العجوز صلى أمام الصنم فردت صلاته ، فإذا رد فى مقام الله فما الفرق بين الصنم والله الحى القيوم ؟ » .